التشيّع في المنطقة الشامية وما والاها
تعريف ودعوة إلى العمل

الشيخ جعفر المهاجر

أريد بهذا النص، الذي سأعمل على أن يكون قصيراً بالقدر الذي لا يُسيء إلى الأفكار التي أراها جديرة بالذكر، أن ألفت النظر إلى حقائق تتعلق باتشيّع في المنطقة التي أتيت منها. أعني المنطقة الشامية، أو كما تسمى هنا الشاميّات. ثم أن التوصل إلى الدعوة عمل منهجي مناسب لهذه الحقائق. وأسمحوا لي بأن أصارحكم منذ البداية بأنني لا أتوقع عملاً منظماً بالمستوى اللائق الذي تستدعيه هذه الحقائق، مهما تكن الدراسة التي سأقدمها متينة ومنطقية وطموحة.

(1)

إن صورة التشيّع في المنطقة الشامية وما والاها يُسيطر عليها الحضور الطاغي لـ جبل عامل، بحيث أنه ما يُذكر التشيّع الشامي حتى ينصرف الذهن إليه أو ما ينصرف. ولا مراء في أن هذا الحضور هو حق لـ جبل عامل يكافئ أمجاده العلميّة وإنجازاته التاريخية العظيمة. لكن المشكلة أن هذه الصورة المركزة تُغطي على ما هو أكبر منها كثيراً وكثيراً جداً.

لقد كان من حسن توفيق جبل عامل، بل بالأحرى من حسن توفيق التشيّع بـ جبل عامل، أن رواد نهضته بنوا النهضة على الاتصال والتواصل والاقتباس من ومع المركز العلمي الشيعي الأعظم يومذاك، أعني الحلّة، بما حفلت به من علماء كبار، من مثل محمد بن إدريس، ورضي الدين علي بن طاووس، ونجم الدين جعفر بن سعيد، ويحيى بن أحمد بن سعيد، والعلامة الحلّي، وابنه محمد فخر المحققين. وبذلك أعد هؤلاء الرواد أنفسهم خير إعداد ليكونوا قادة نهضة حقيقية. ولولا ذلك لكان من الممكن أن يكون مصير جبل عامل مصير غيره من الجماعات الشيعية الكثيرة في المنطقة الشامية الكثيرة في المنطقة الشامية وما والاها. من هنا نعرف الفضل العميم لأولئك الرواد، وأكثرهم مجهولون من أسف، ليس على جبل عامل فقط، بل على التشيّع إجمالاً.

(2)

ذلك التوفيق الذي رافق مسيرة جبل عامل منذ القرن الثامن للهجرة، جانب جماعات شيعية مجاورة أكثر عدداً بكثير. أعني أولئك المعروفين اليوم باسم (العلويين) الذين ينتشرون حتى اليوم في شمال لبنان ووسط وشمال وساحل سورية. هذا إذا لم نذكر امتدادهم الكبير في الأناضول وصولاً إلى ألبانيا ويبلغ تعداد الجميع ما يزيد على العشرين مليوناً. ثلاثة ملايين تقريباً في لبنان وسورية، والباقي في الأناضول وسائر أنحاء تركيا وألبانيا. وأعتقد أنه لو قُيّض لهذه الجماعات روّاد شجعان مثل إسماعيل بن الحسن الجزيني، ويوسف بن حاتم المشغري، وطومان بن أحمد المناري، وصالح بن مُشرف الطلّوسي وغيرهم، أولئك الذين اجترحوا أعجوبة نهضة جبل عامل، يتولونمهمة إعادة الصلة مع المركز العلمي الشيعي الرئيس، لوحصل ذلك لكانت صورة التشيّع في العالم اليوم مختلفة تماماً.

إن تاريخ هاتيك الجماعات مُغرق في الغموض، وهو يطرح أسئلة أكثر مما يُقدم أجوبة. على رأس هاتيك الأسئلة: كيف وصل التشيّع إلى هذه المناطق النائية البعيدة مضطربات الأفكار والعقائد ؟ أعتقد أن الجواب على هذا السؤال قد ضاع إلى الأبد في متاهات التاريخ التالي لفترة الحدث. لكن من المؤكد أنها كانت على صلة بالسيد المرتضى. وفيها استفتاءات واسئلة كلاميّة وفقهيّة. أوردها في المجموع المطبوع تحت اسم (رسائل السيد المرتضى) وهي وثائق نادرة لا تُقدّر بثمن، تُلقي ضوءاً على شطر من تاريخهم االضائع. نستفيد منها بدواً أن هذه الجماعات كانت حتى القرن الخامس للهجرة على صلة بالمركز العلمي الشيعي الرئيس في ذلك الأوان، أعني الجانب الغربي من بغداد، حيث عاش وعمل ثلاثة أعلام عظام هم الشيخ المفيد والسيد المرتضى والشيخ الطوسي. ثم انقطعت تلك الصلات. وما من ريب أن هذا الانقطاع قد حصل بسبب انهيار أمر التشيّع في الشام والأناضول بسبب سيطرة العناصر العسكرية التركية من سلجوقيّة وغيرها. وهي التي حملت عداءً غير مكتوم للتشيّع. وعملت كل ما في وسعها للتضييق على أهله واضطادهم. وكان من نتيجة ذلك أن انطوت تلك الجماعات علاى نفسها، وتمكّن منها الجهل والفقر. ومضت تعالج ما وعته ذاكرتها من عقائدها، جيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن، دونما مرجع من عالم أو كتاب. وهذا هو الظرف النموذجي لظهور الإنحرافات عن عقيدتها ونهجها الأصليين.

(3)

هوذا ما يتعلق بالشطر الأول من النص، بحسب ما التزمت به في عنوانه، أي التعريف بالقضيّة التي أعمل على إلفات النظر وتحريك الاهتمام بها. ويمكن أن ألخصها بالقول، إن هاهنا جماعة شيعية إمامية إثني عشرية، تنتشر من غرب آسية إلى شرق أوروبة عدا عليها الزمان ففصلها عضوياً عن الجسم الشيعي الأم. لكنها بالتأكيد لم تنفصل روحياً ومعنوياً. بل إنها ما تزال تختزن في أعماقها توقاً وحنيناً قوياً للعودة إلى أصولها. توق يتصاعد يوماً بعد يوم، مع تقدم الوعي والمعرفة العمين، وخصوصاً وعي المسلمين في كل العالم على ذاتيتهم الإسلامية الجامعة الذي لا يمكن أن يكون هؤلاء وحدهم بمنأى عن تأثيره. لكنهم طبعاً عاجزون عن التعبيرتعبيراً علمياً عن هذا التوق لأسباب عدة، على رأسها إفتقارهم إلى الأدوات الثقافية المناسبة بعد اغترابهم وغربتهم مدة تزيد على العشرة قرون. من هنا نقول إنه لا بد من عمل مدروس بدقة كبيرة، يعتمد الدأب والنفس الطويلين للالتقاء مع هؤلاء الأخوة في منتصف الطريق. والنتائج المتوقعة من النجاح في هذه الخطوة هي بحجم تبدّل استراتيجي في وضع التشيّع في العالم.

من المفيد أن أتحدّث في هذه المرحلة من الكلام عن تجربة ذات مغزى مع إخواننا المسمَّون بـ العلوية في سورية، لما في هذه التجربة من فائدة وعبرة.

بطل هذه التجربة دجنا آية الله الشيخ حبيب آل إبراهيم المهاجر قدس سره. وهو أول من التفت إلى أهمية تعزيز العلاقة مع إخواننا في لبنان وسورية. وأولاهم في العقدين الأخيرين من عمره (ت: 1385هـ/ 1965م) عناية خاصة. وكان يقضي أوقاتاً متفاوتة بينهم في اللاذقية وحمص وطرابلس والقرى الكثيرة المُطيفة بهذه المدن. وأسس أول جمعية من مسجد لهم في هذه المدينة. وتوّج عمله بينهم بانتخاب تسعة من أبنائهم، تدبّر أمر إرسالهم إلى النجف ليعودوا إلى قومهم مبلّغين. كانت هذه خطوة في غاية البراعة والسداد. رمت إلى أن يكون روّاد (العلويين) منهم. مما

يساعد على تفادي نشوء بعض الإشكالات لبمتوقعة في مثل هذا الوضع الدقيق. وبالفعل وصل أولئك التسعة إلى النجف بعد اتصالات حثيثة بأحد المراجع. وبعد شرح الدور المنوط بهؤلاء الطلاب. مما يستدعي إيلاءهم عناية ورعاية خاصة. لكن النجف وأسفاه لم تُقدِّر معنى وأبعاد وجود أولئك الطلاب فيها، وعاملتهم بغاية الفظاظة والقسوة، وصولاً إلى حد اعتبارهم كافرين نجسين يتجنبهم زملاؤهم ويزورّن عنهم. وبالنتيجة انقلب أولئك الطلاب عائدين إلى بلدانهم التي أتوا منها. وتحطمت الآمال التي عُلّقت عليهم. بل كان لعودتهم على النحو الذي ذكرناه عكس الأثر المنشود.

(4)

في ختام هذا العرض الموجز – الذي أرجو مع ذلك أن يكون قد نجح في تحريك اهتمامكم بموضوعه- أرجو أن تسمحوا لي بأن أدلي باقتراح:

لماذا لا تقوم الجمهورية الإسلامية، بمبادرة منها برعاية عدد جيّد وإنني أحب أن أتصور عدداً كبيراً من طلاب العلوم الدينية من علويي سورية تحت إشراف المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام مثلاً في إحدى الحوزات هنا. على أن توفّر لهم رعاية خاصة، ومنهجية تتناسب مع وضعهم؟

أعتقد أن هذه ستكون بداية ممتازة. كما أنها لا تقتضي إعداداً خاصاً ونفقات كبيرة. مما يعزز هذا الطرح أن في بعض الحوزات الآن في سورية ولبنان طلاب منهم. بعضهم قد بلغ مرحلة جيّدة من الدراسة. الأمر الذي يدل على وجاهة الفكرة مبدئياً. وأنني أتوقع في حال نجاح هذه الخطوة، وليس ذلك بالأمر الصعب، أن تجذب طلاباً من منطقة الأناضول، وربما من ألبانيا أيضاً. لما بين العلويين المنتشرين في تلك البقاع تواصل قوي. الأمر الذي يسمح بانتقال التأثير بينها.

أرجو أن تحظى أطروحتي، بما فيها من حقائق ودعوة للعمل بما تستحقه من الدراسة، بل والعمل إن شاء الله تعالى. وبذلك نخرج جميعاً من عهدة التكليف.